وفاء: رواية

الكاتب: سليم نصر

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 19305 / 2019

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 063 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

وَفَاءُ

الكاتِب

سَلِيمُ نَصّ

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

إهداء

أهدي هذا العمل إلى:

والدي... الرجل الذي علمني كيف أقرأ

والدتي... أول من شجعني على الكتابة

وجيشي الوحيد في هذا العالم...زوجتي وحب عمري.

❋ ❋ ❋

مقدمة

في ظل عصر انقرضت فيه ظاهرة الحب لأجل الحب، وحلت فيه آفة الحب لأجل المنفعة المادية، يطل علينا من بين ثنايا هذا المجتمع بطلان آثرا أن يحفظا لهذا العشق العذري مكانته وجماله، ليحلقا في سمائه يتحديان الزمن ويتخطيان كل حواجزه ومعوقاته.

يتحد هذان البطلان اتحادًا سرمديًّا لا انفصال فيه، ولم يفرقهم ألم أوصراع أو... وفاة.

❋ ❋ ❋

اشتقت إليـــــك إلى صوتـــك يناديني

إلى عينـــــــــك إلى ضحكة تراضيني

إلى حضنـــــــك إلى قلـبـــك ليحييني

أأحببت المـوت؟ أأحببتـــه؟ أجيبيني

أأعجبك الموت؟ تعالـــي إذن أريحيني

هذه الكلمات الحزينة كانت كل ما وجده جيرانه في جيبه عندما اضطروا لاقتحام شقته بعدما دارت شكوكهم بعد غيابه عن أنظارهم لعدة أيام، ليتفاجأ الجيران بعد دخولهم غرفة نومه أنه... رحل، أجل رحل، رحل في هدوء مثلما عاش طيلة حياته في هدوء.

قرر الانسحاب في صمت حتى لا يكون عبئًا على أحد، عاش أكثر من نصف عمره يظهر الهدوء أمام الناس وأمام أقرب الناس منه، لكن هذا الهدوء كان يخبئ تحته براكين من الحزن والآهات المخنوقة، فمن يرى الذبيحة من بعيد يحسبها ترقص طربًا، فنحن البشر كل منا خلق له حلمه، وكل خلق له ألمه، فمن بات يفكر في حلمه ليس كمن سهر يصارع في ألمه، رحل الرجل الذي لم يختلف عن الكثير من الطيبين صدقًا وعشقًا وإخلاصًا، كان فردًا من الناس، لم تكن له صولات ولا من أبطال المغامرات؛ لكنه ضمن لنفسه صفحة مكتوبة من نور في كتاب الحب.

* * *

لم يتمالك خالد نفسه، بل لم يصدق حتى نفسه أن التي يمسك بيديها وتجلس الآن بجواره، هي وفاء حب عمره وعشق حياته، وأن هذه السيارة التي تقلهما هي سيارة الزفاف، فقد كان كل ما يحدث أكبر من أن يصدقه عقله.

- اضربيني على وجهي لأفيق؛ فأنا لا أكاد أصدق نفسي.

- هل هذا معقول؟ هل تحقق حلم حياتي؟ هل فعلًا أصبحتِ زوجتي؟

- ابتسمت بفرحة ملأت الكون حولها سعادة ونظرت إليه بعينين تشعان توهجًا، ولمعانًا يكاد يغطي على لمعان القمر مع أنه في هذه الليلة كان في تمام خلقته، كأنه حضر وكل نجم في السماء معه قد حضر ليشهدوا هذه الليلة التاريخية في حياتهما التي كللت فيها قصة حبهما الجميلة بزواج سعيد.

أخذ ينظر لها بعشق ويقول:

آه يا بدري ويا بدر بدري، غلبت البدر نورًا كأنه غير مضيء.

أعجزته حُسنًا، أعجزت الحسنَ حسنًا، وعلمته كيف يضيء.

- لا تحرجني بشعرك فأنا لا أستطيع أن أتمالك أعصابي من الفرحة.

وابتسمت من جديد وأدارت وجهها تجاه نافذة السيارة كأنها تخبئ خجلها من عينيه.

توقفت السيارة أمام قاعة الاحتفال حيث كان الأهل والأصدقاء ينتظرون قدوم العروسين في سعادة، ثم انطلقت الزغاريد والمباركات مع انطلاق الموسيقا، معلنة بدء ليلة العمر، وأخذ العروسان يرقصان ويضحكان فرحًا مع أحبائهما الذين كانوا فرحين لاكتمال هذه القصة الجميلة ونهايتها هذه النهاية السعيدة.

ظل العرس مستمرًّا ببهجة حتى منتصف الليل، ثم بعد ذلك رافقوا العروسين إلى عشهما كأجمل عصفورين.

- أخيرًا انتهت ليلة العرس على خير، وأصبحنا أنا وأنت في شقتنا بمفردنا.

- أرأيت الشباب وأهلنا كيف كانوا كلهم فرحين ويرقصون؟

- حتى أبي، حتى أبي رغم مرضه ظل يرقص طوال الليل.

- آه.

قالتها بخجل.

- لكن فرحتهم جميعًا لاتساوي فرحتي.

- ولا أنا؛ فهذا اليوم هو ثاني أسعد أيام حياتي.

قالتها ثم ضحكت ضحكة خفيفة.

- ثاني؟وما هوأولها إذن؟

- أسعد ليلة في حياتي يا حياتي يوم لفتت صديقتي يسرا انتباهي لذلك الشاب الذي لا ينفك يبعد عينيه عني، كأن لم يكن في المدرسة غيري.

- نعم، لم يكن في المدرسة غيرك، فأنا مُذ رأيتك في درس اللغة الإنجليزية للصف الأول وأنا أشعر بأنني قد وجدت قلبي.

– شعور غريب أحسسته عندها، كأنني أول مرة أتعرف عليه، نبضات جديدة، قشعريرة، سعادة غريبة، كل شيء جديد، كأني فعلًا أول مرة أشعر به.

– هذه أول مرة أسمع منك هذا الكلام.

– أنا تعمدت أن أترك أجمل كلام لأجل الليلة.

* * *

كلمات حارة تتبعها قبلات أكثر حرارة، قبلات تشتعل بنار الشوق ولهيب السنين، وبدأت ليلة العرس الحقيقية.

استيقظ عند الفجر، جلس على السرير، وأخذ ينظر لذلك الملاك النائم أمامه في سبات عميق، تنام عن طمأنينة يبدو أنها لم تكن تشعر بها من قبل، فلم تنم بمثل ذلك العمق سابقًا.

سافر بخياله لهذا الماضي القريب وأخذ يتذكر منذ اليوم الأول الذي رآها فيه، وكيف كان يذهب لبلدتها المجاورة لبلدته ليحظى بشرف المرور أمام بيتها، لا يبغي سوى المرور أمام المكان الذي

تعيش فيه؛ فهو على الرغم من شدة حبه إلا أنه كان يتفاخر بعد خطبتهما بحبه العذري، حيث كان يقول أمام أصدقائه:

أقسم قسمًا من محب بحياة لا يملك إلَّاها.

وحب أشرف به حبًّا، أني لم أحب سواها.

ولا قبلت من كلها جزءًا؛ بل أسعدتني دومًا رؤياها

جال بخاطره حتى وصل إلى الجامعة وما أدراك ما الجامعة! تلك المرحلة التي اكتمل فيها عشقه القلبي بهيامه العقلي، فملكت بذلك كل أركانه، واحتلت بحسنها قلعة وجدانه.

التحقا سويًّا بكلية التجارة، ومنذ السنة الأولى ذهب وعائلته لطلب يدها من أبيها الذي وافق على الارتباط.

وأثناء الجلسة العائلية نظر إليها والدها نظرة بابتسامة لم يشعر بها أحد من الجالسين سواها، الأمر الذي جعلها تنظر للأرض في خجل وتبتسم.

بدأت هي تذاكر وتجتهد وهو اتجه بكل قوته إلى العمل بجانب الجامعة لينتهي من شقته بأسرع وقت ممكن؛ ليستطيع الزواج منها بعد انتهاء الدراسة الجامعية، حيث أنه وحيد والديه، وفي هذه اللحظة تذكر موقفها البطولي في الجامعة، حيث أنه لم يتمكن من النجاح في إحدى السنوات، فقامت هي بالرسوب في العام الذي يليه حتى لا تتركه وتتخرج قبله من الجامعة، يا له من موقف لن ينساه طيلة حياته!

كانت تدخل الامتحان تكتب اسمها وتخرج... فقط ههه.. ههه.

ضحك مرة ثانية، ثم مال عليها وقبل رأسها وأخذها بين ذراعيه وغط في نوم عميق أيضًا.

دق جرس الباب معلنًا قدوم المهنئين بالزفاف وليلة "الصباحية"، ودارت بعض الفكاهات بين خالد وأقاربه، ومر العام الأول في سعادة، كانت ثمارها طفلة جميلة سمُّوها فرحة.

- انظري إليها بالرغم من أنها لم تكمل العام، إلا إن جمالها أخاذ مثلك تمامًا مولاتي.

- هه... بعد عام زواج ما زلت مولاتك؟

- أنت مولاتي أول عام وكل عام حتى أمو..

- لا تكملها أرجوك.

ووضعت أصابعها على شفتيه محاولة إيقافه.

- مجرد التفكير في أنك قد تبعد عني يكاد يوقف قلبي.

- لا أستطيع أن أبتعد عنك للحظة.

- حسنًا إذن، فليكتب الله لي الموت قبلك.

نزلت دمعة سريعة من عينيه فأقبل عليها وضمها إليه ضمة قوية وأخذ يشتم رائحتها ويزداد ويزداد ثم قال لها:

- لن تذهبي بعيدًا، لن أدع أحدًا يأخذك مني.

ثم حاول أن يخرج من هذا الموضوع مسرعًا فقال لها:

- لم تقولي من منكما أجمل؟ أنت؟ أم فرحة؟

- بالتأكيد فرحة.

- طبعًا لا؛ فالأصل أجمل وأقدس من الصورة مولاتي.

وأخذا يضحكان وينظران إلى الطفلة النائمة أمامهما على السرير، وأغدقا عليها دعواتهما وتمنياتهما لها بالحياة المديدة، والأيام السعيدة، وظلا طوال ليلتهما يفكران ويخططان لحياتها ومستقبلها، آملين من الله أن يوفقهما في تربيتها وتعليمها.

❋ ❋ ❋

لم يمنعهم انتقالهم من قريتهم والاستقرار في المدينة القريبة منها من المحافظة على الزيارات العائلية الأسبوعية، فهم كانوا على قدر من الهدوء الاجتماعي، حيث لا توجد الكثير من العلاقات أو الصداقات، فكانوا يكتفون خارج نطاق العائلة بصداقات محدودة جدًّا، فكان هو يكتفي بصديق واحد مقرب منه هو زميله في العمل أستاذ طارق، الذي كان يكبره بأربعة أعوام، فكان يتخذه بمثابة أخ أكبر له، والذي كان يحاول مرارًا وتكرارًا اصطحابه للجلوس معه في المساء على أحد المقاهي الشعبية، لكنه كان دائم الرفض، معللًا بأن الوقت الذي يمضيه في المقهى يمضيه مع زوجته وابنته.

فكان يسخر دائمًا منه قائلًا: يا لك من كائن بيتوتي، وكان يسأله متعجبًا: كيف تتمكن من الجلوس في المنزل كل هذا الوقت؟ فأنا لا أطيق الجلوس مع زوجتي أو أولادي كل ليلى، هكذا لا أستطيع أن أحتمل صخبهم وإزعاجهم، فما كان منه إلا أن يجيبه بالضحك.

- أستاذ طارق، هل من الممكن أن تنجز بعض الأعمال لأجلي لأني أريد الانصراف باكرًا اليوم لأصطحب وفاء وفرحة إلى الطبيب؟

- أكيد، ولكن من المريض؟ لعلها وفاء لأنها لم تأت إلى العمل اليوم؟

- لا، إنها فرحة، إنها تعاني من ارتفاع في درجة الحرارة منذ الأمس...

- أحضرها أستاذ خالد وأنا أنجزها عنك.

يتدخل صوت نسائي ملتهب في الحوار بدون أي مقدمات.

- أحضر الأوراق وأنا سأقوم بكل ما عليك من الأعمال.

ينظر إليها باستغراب مستنكرًا عرضها، ليس لأنه لا يريدها أن تساعده في أعماله؛ بل لأنه يعلم غرضها من عرض هذه المساعدة.

يسافر بنظراته بينها وبين الأستاذ طارق الذي قطع حبل الصمت الذي امتد في المكان.

– لا نريد لك أن تتأخري في العمل بسبب الأستاذ خالد، دعيني أنا سأنجزهم بدلًا منه، فتلك فرصة عظيمة لأتأخر في العودة إلى المنزل وأوفر على نفسي صراع ما بعد العمل هههه.

لا، لا توجد مشكلة في التأخر، خاصة إذا كان هذا التأخر لأجل الأستاذ خالد.

كانت هذه الكلمات والنظرات التي تلتها السكين التي قطعت الشك باليقين، فهو يشك منذ فترة في نظرات وأسلوب الآنسة سهام في التحدث معه، الأمر الذي يختلف عن أسلوبها عند التحدث مع أي زميل آخر.

نعم الآنسة سهام التي تصغره بعام واحد ولم ترزق بابن الحلال حتى الآن تنظر إليه على أنه الرجل الذي تحلم به كل فتاة، ملتزم ومخلص لزوجته لدرجة كانت تتمنى أن تكون هي أيضًا... زوجته.

كان يشعر دائمًا بذلك، ولكنه كان يكذب نفسه باستمرار لأنها لم تصارحه بشيء وهو أيضًا لم يكن يحب فتح الباب للمشاكل، بجانب أنه كان يرفض فتح الباب لأي مشكلة تطرقه.

كانت دائمًا تحاول التودد إليه ولفت انتباهه إليها وحمله على التقرب منها، لكن كل محاولتها كانت تبوء بالفشل الذريع، حيث لا يوجد لديه أي مساحة ليدخل فيها أي أحد، ففندق قلبه محجوزة كل غرفه للأبد تحت اسم...وفاااء.

- شكرها على مساعدتها ثم انصرف مسرعًا إلى زوجته، لكنه كان يفكر في نظراتها وما ستخبئه له الأيام القادمة، حاول طرد هذه الأفكار مؤقتًا، مؤجِلًا التفكير فيها لما بعد الاطمئنان على ابنته.

❋ ❋ ❋

- كيف حال ابنتك أستاذ خالد؟

- الحمد لله، زال الخطر أستاذ طارق.

- لابد أن أمها قد أهملتها قليلًا، لأنني ألاحظ كثرة مرضها في الفترة الأخيرة.

حاولت بتلك الكلمات السامة سلك طريق آخر نحو خالد، واتباع استراتيجية جديدة علها تجدي نفعًا، فكم من مرة أثبتت جدواها هذه الاستراتيجية الملعونة (فرق تسد).

حاولت إدخال الشك إلى قلبه نحو إهمال زوجته لابنته الوحيدة، لكنها فشلت أيضًا هذه المرة، حيث جاء رد الأستاذ طارق سريعًا محاولًا قطع الطريق عليها ودهسها بكلماته إن استطاع.

- الأستاذة وفاء زميلة قديرة، ولا أظن أنها قد تهمل ابنتها، فأنا على يقين كامل من حبها لها.

وأخذ كل من طارق وخالد في تبادل النظرات لبعضهما البعض استنكارًا لمحاولتها الفاشلة.

دارت عجلة الأيام بسيطة وهادئة وسعيدة على مستوى الأسرة الصغيرة، بين جلسات منزلية، لمشاهدة الأفلام أو زيارات عائلية في المناسبات، دامت هذه الأوضاع مدى عامين لم تخل من مشكلات طفيفة، سرعان ما كانا يجدان لها حلًّا بتفاهم العاشقين أو ببعض المساعدة من المستشار الأعلى لوفاء وصديقها القديم الجديد... أبيها.

أخذا يستمتعان بعملهما سويًّا وحياتهما، مراقبين زهرتهما الصغيرة تنمو وتزدهر أمامهما، حتى وصلت عامها الثالث، حتى تدخل القدر وأعلنت الحياة رفضها لهذا الهدوء، وأطلقت السفينة صافرات الإنذار معلنة اقتراب عاصفة، أو بمعنى أدق كارثة، ستقلب حياتهما رأسًا على عقب.

❋ ❋ ❋

رن هاتف الشقة في منتصف الليل يعلمهم بحلول الكارثة، وبالرغم من مرور حوالي خمسة أشهر على وفاة والدها نتيجة أزمة قلبية، مفاجئة إلا أنها ما زالت تعاني من آثار هذه العاصفة الشديدة، الأمر الذي دعا خالد لمحاولة تخفيف أثر ذلك عليها.

- أما زلت لم تنامي بعد يا حبيبتي؟

- لا أستطيع، فأبي لا يفارقني، لا يبارح عقلي لحظة، كل يوم أستمر في تذكره، أتذكر كل شيء، ضحكاته، كلماته، حتى الأوقات التي كان يضربني فيها كأب، أتذكر كل ذلك بشكل يعجزني عن النوم.

قطعت عبارتها الكلام وأخذت في البكاء والنحيب، كأن أباها قد مات اليوم، ثم أكملت متماسكة...

- لم أكن أظن أني أحبه كل هذا الحب، أشعر كأن (وتشير بيدها إلى صدرها) روحي قد دفنت معه...

- اهدئي، اهدئي ها، أنا ذا موجود بجوارك، سأحاول قدر الإمكان تعويضك، هيا نامي، خذي اشربي القليل من الماء ونامي.

نامت على ذراعه محاولة البحث عن الدفء الذي فقدته، فقد اكتشفت رغم عشقها لخالد إلا أن الدفء والدعم اللذين كان يقدمهما لها أبوها كانا دفئًا ودعمًا من نوع آخر، دفء الحائط الساتر، والخبير الذي كانت تستشيره في كل شيء، والأمر الذي لا يعلمه خالد أن أباها كان هو أول من علم بخبر حبها لخالد، بل وشجعها على المضي فيه، بعد ما تأكد من جديته وصدق حبه، هذا الحب وهذه الصداقة سيكون لهما أبلغ التأثير على وفاء في الثلاثة أشهر التالية إلى أن...

❋ ❋ ❋

يجلس في غرفته الهادئة داخل عيادته التي تقع في أرقى أحياء القاهرة، فقد طرق خالد باب الدكتور عز عبد الوهاب أحد أشهر أطباء الأمراض النفسية والعصبية، محاولًا الاستنجاد به لينقذه وينقذ زوجته من الحالة الخطيرة التي وصلت إليها حالتها منذ اليوم الحزين.

- أخبرني يا دكتور أرجوك، ما هي حالة وفاء؟

- للأسف تيقنت بعد هذه الجلسة الثالثة من أنها مصابة بمرض نفسي خطير.

- خطير؟ كيف؟ أي إنسان من الممكن أن يفقد أحد والديه ويمر بحالة حزن عادية، بعدها يستمر في حياته بشكل عادي.

- للأسف فإن أعصاب زوجتك لم تتحمل الصدمة الشديدة نتيجة لشدة تعلقها بوالدها، الأمر الذي أدى إلى إصابتها بالفصام أو schizophrenia.

- وماذا يعني ذلك؟ (ينظر إلى الدكتور بقلق محاولًا استخراج الإجابة من فمه قبل أن ينطق بها).

وقف من على مكتبه وجلس على الكرسي الذي أمامه واضعًا يده على ركبته محاولًا طمأنته، لكن الوضع كان فعلًا مقلقًا.

- الفصام مرض نفسي، معناه اضطراب حاد في الدماغ، يشوه طريقة الشخص المصاب به في التفكير، التصرف، التعبير عن مشاعره، النظر إلى الواقع ورؤية الوقائع والعلاقات المتبادلة بينه وبين المحيطين به؛ لأن هذا المرض هو الأصعب والأكثر تعقيدًا من بين جميع الأمراض النفسية المعروفة.

وللأسف فقد يسبب هذا المرض للمصابين به الخوف والانطواء على النفس؛ لأنه يا أستاذ خالد مرض مزمن، يلازم المصاب به طيلة حياته، ومعه لا يستطيع الشخص المصاب التفريق بين الواقع والخيال، مما يفقده ارتباطه بالواقع.

تتخبط نبضات قلبه من هول ما سمعه من الدكتور؛ لأنه شعر أن الأمر قد هرب منه، لأنه لن يستطيع إنقاذ زوجته، ومعها إنقاذ نفسه؛ لأنه لم يتخيل مجرد التخيل حياته بدونها أبدًا.

- وماذا يجب عليَّ أن أفعل لمساعدتها يا دكتور؟

- حاول اصطحابها في نزهات لطيفة، أو قوموا ببعض الزيارات العائلية، لعلها تلهيها عن نفسها قليلًا.

- أقسم لك أن أفراد عائلتي وعائلتها لم يدخروا جهدًا في مساعدتها والترويح عنها.

❊ ❊ ❊

انتهت جلسته مع الدكتور، التي شعر أنه خرج منها بهموم أكثر من التي دخل إليه بها، وزاده همًّا تصريح الدكتور أن هذه الحالة ليس لها علاج أبدًا، الأمر الذي يعني التعاسة الأبدية...

❊ ❊ ❊

– ماذا بك أستاذ خالد؟ أجد أنك دائم التفكير، ويبدو عليك الحزن؟ ولماذا أطعت زوجتك في أخذ إجازة لمدة عام؟

– الحقيقة أستاذ طارق... (ثم تنهد أكثر من مرة).

– ماالأمر؟ أقلقتني!

– منذ يوم وفاة والدها وهي أصيبت بصدمة شديدة، لا تستطيع الخروج منها، ولا أنا أستطيع إخراجها منها، حتى الطبيب النفسي فشل في مساعدتها، إنها... إنها دائمة التفكير والسرحان، لا تكاد تشعر بوجودي بجوارها.

– يااااه! هل كانت تحبه لهذه الدرجة؟!

– إلى أقصى درجة، فقد كان هو منافسي الوحيد فيها، فقد كانت تحدثه في التليفون أكثر من ساعتين يوميًّا، كان أبوها وصديقها ومرشدها في كل شيء.

– حقيقة لا أدري ماذا أفعل...

لم يكمل كلامه فقد رأى أن حله الوحيد هو أن يضع رأسه بين كفيه ويصمت في حزن.

- يا لك من مسكين! كان الله في عونك.

* * *

- حبيبتي، ما رأيك لو نخرج اليوم في نزهة ونشاهد فيلمًا في السينما؟ أليست فكرة جيدة؟

- لا، لدي فكرة أفضل، أفكر في زيارة أحدهم.

- من؟ أمك؟ هيابنا. (ابتسم في حماسة كأنه سيحقق انتصارًا كبيرًا)

- بعد صلاة الجمعة نذهب لزيارة قبر والدي.

- والدك؟ أنا أحاول جذبك خطوة للأمام وأنت تعيديني ألف خطوة للوراء! لن نذهب.

- أرجوك، لقد زارني اليوم في المنام، وطلب مني زيارته وقراءة الفاتحة.

- فلنذهب.

وافق على مضض لأنه لم يشأ أن يؤلمها برفضه، فقال في قرارة نفسه يكفيها الألم الذي يكويها، ولعل الزيارة تنفس عنها بعض الضغط النفسي.

- آه، كم أشعر بالراحة هنا حيث أستطيع التنفس بكل حرية، أبي (ونظرت إلى القبر محاولة احتضانه) فعلًا كنت صادقًا لدعوتي في المنام لزيارتك، فقد وجدت هنا شعورًا كان ينقصني، شكرًا فما زلت مصدر راحتي حتى بعد موتك...

ظلت لأكثر من ساعة جالسة بجوار قبر أبيها تحدثه وتنصت كأنها تستمع إليه، لا تكاد تشعر بوجود زوجها، كأنها نسيته ونسيت وجوده، كمن وجدت السعادة التي افتقدتها منذ رحيله قبل عشرة أشهر.

- حبيبتي، حان وقت الرحيل.

ناداها أربع مرات لكنها لم تجبه، كأنها عبرت حاجز الزمان، وذهبت إلى البرزخ... لأبيها.

- حبيبتي، حبيبتي... وفاااء.

- ماذا؟

- هيا بنا لنذهب فقد تأخر الوقت.

أمسك بيدها ليساعدها على النهوض لكنها شدت على يديه ووضعت يدها الأخرى على الأرض وقالت:

- ما أجمل هذا المكان، أشعر تجاهه بحب شديد، أرجوك تذكر هذا المكان جيدًا.

(ووضعت يدها وهي تبتسم ابتسامة باهتة).

- أتذكره! لِمَ أتذكره؟!

- ستفهم لاحقًا.

(ورفعت عينيها إليه وسقطت منها دمعة حزينة على الأرض).

- لا أدري يا أمي ماذا أفعل! حاولت كثيرًا إخراجها من هذه الحالة، لكني لم أستطع، إنها تنتحر ببطء، لم أعد أعرف ماذا أفعل!

- اهدأ يا بني وادع الله لها، أين هي الآن؟

- خرجت للتسوق...

❋ ❋ ❋

تسير في الشارع تائهة، قدماها تسيران بها في مكان، وعقلها في مكان آخر، وفجأة تلتفت إلى يسار الطريق ووقفت مندهشة تنظر... أبي! غير معقول.

ولم تتمالك نفسها من الفرحة ثم...

❊ ❊ ❊

- للأسف أستاذ خالد، التحقيقات أثبتت أنها قطعت الطريق فجأة أمام السائق، لذلك أخلت النيابة سبيله.

- البقاء لله.

❊ ❊ ❊

– اليوم فقط أدركت معنى فقد أغلى الأشياء، اليوم فقط أدركت أن هناك درجة أخرى للون الأسود، درجة أكثر حزنًا وكآبة وألمًا، اليوم فقط أدركت صعوبة حالتك النفسية.

أدركت قسوة القهر والكآبة، أدركت كم أحبك، كم أعشقك، كم أحببت الدموع التي تنهمر لدرجة إغراقي، آآآآآآه كم أشتاق إليك،آآآه كم أعشقك.

عام كامل بعد وفاة وفاء لم ينقطع فيه عن التحدث مع صورتها التي تقبع على الحائط أمام السرير في غرفة نومهما، ولم يترك يوم جمعة بدون زيارة قبرها، هو وطفلتهما فرحة، ليخبرها بأحداث الأسبوع وكيف يعتني بابنتهما وكيف أصبح لها أمًّا وأبًا...

مرت السنة تتلو السنة، تتغير الأيام ولا تتغير الألوان، كلها قاتمة لا تشرق، وقد عود نفسه على ذلك، ففرض على نفسه روتينًا ثابتًا بلا تغير، يدور بين العمل وابنته وزيارة زوجته.

- مولاتي، اليوم أول يوم لابنتنا في المدرسة، وقد اشتريت لها ملابس المدرسة وكل شيء...

- أشكرك حبيبي، بارك الله فيك يا أفضل زوج في الدنيا...

- أفضل زوج لأفضل زوجة...

الله أكبر... الله أكبر.

قطع الحوار أذان الفجر، فاستيقظ من حلمه لصلاة الفجر، وقبل أن يقوم من السرير نظر إلى الصورة مبتسمًا... تلك الصورة التي رفضت صاحبتها رغم مغادرتها العالم المادي أن تغادر عالم أحلامه، فواظبت كما واظب هو على زيارة قبرها كل جمعه على زيارته في أحلامه، كل ليلة بانتظاام، تحدثه وتؤنسه، ويأخذ رأيها في كل حياته.

لكن هذا الأمر ظل سرًّا بينه وبينها، لأن الناس قد تتهمه بالجنون وهم معذورون في ذلك، فكلنا نحب، لكن ليس كلنا يهيم بمن

يحب، تلك الدرجة التي كسرت كل حواجز الزمان والمكان، والتي لا يشعر بها إلا من ارتقى لها فصدق من قال (يموت العاشق ويتحلل ويبقى عشقه كتاج مكلل).

❋ ❋ ❋

- أستاذ خالد لا أدري من أين أبدأ.

- تفضل أستاذ طارق. قل لي ماذا تريد؟

- في الحقيقة... الأستاذة سهام حدثتني بالأمس وطلبت...

- طلبت ماذا؟

ألديها شيء جديد لتقوله عن إهمال وفاء؟ قل لها لم يعد هناك إهمال ولم يعد هناك...

خنقه البكاء عن الاستمرار في الحوار.

- اهدأ أستاذ خالد، لقد قالت لي أنها كانت تفعل ذلك لشدة حبها لك وتعلقها بك، وفي الحقيقة لقد طلبت مني أن أقدم لك طلبها للارتباط.

- ماذا؟

- هي تقول أنها تريد أن تساعدك في تربية ابنتك ومشاطرتك الحياة.

- مستحيل أستاذ طارق.

- لماذا مستحيل؟ أعط نفسك فرصة للتفكير فابنتك ما زالت صغيرة ومسئولية المنزل شاقة.

- صدقني أستاذ طارق لا أستطيع، لا أريد أن أظلمها معي.

- ولماذا تظلمها؟

- لأني لن أستطيع أن أوفر لها الحب الذي تنتظره مني، فهي وإن كانت تود مساعدتي في تربية فرحة، فهي أيضًا تريد مني حبًّا يعوض لها سنوات كتمت فيها حبها لي، فهي في النهاية امرأة.

- حاول إذن إعطاءها بعض الحب...

- قلت لك مستحيل.

- مستحيل لماذا؟

- لأن لي قلبًا واحدًا دفنته يوم دفنت وفاء.

ثم انفجر في البكاء كالطفل الصغير، وأخذ الأستاذ طارق يربت على كتفيه ليهدأ...

❋ ❋ ❋

مرت سنواته بعد ذلك رتيبة، بطيئة، متشابهة في معظم أحداثها، ما كان يهمه فيها سوى مساعدة ابنته على قضاء دروسها، وما كان يزعجه فيها سوى محاولة أحدهم مناقشته في موضوع الزواج، فيضطر للقسم أنه ليس بحاجة لا للزواج ولا للمساعدة من أحد.

- حبيبتي، انظري إلى ابنتنا فرحة، اليوم آخر امتحاناتها في المرحلة الإعدادية، وقد أنهت كل مراحلها السابقة بتفوق.

- كل هذا يعود لمساعدتك لها حبيبي.

- لولا دعمك مولاتي لما تحقق ذلك.

- مولاتك؟ أما زلت مصرًّا عليها؟

- نعم، مولاتي ألم أقل لك؟ طوال حياتي أنت مولاتي.

ابتسمت ابتسامة كحور عين، ثم رحلت من حلمه ببطء تاركة له سويعات قليلة ينام فيها قبل الذهاب إلى العمل.

- حالة غريبة أستاذة سهام حالة الأستاذ خالد، أليس كذلك؟

– فعلًا أستاذ طارق، إنه يمثل حالة من الوفاء النادرة التي لم تعد موجودة بيننا في هذه الأيام.

– أجل، فرغم مرور خمسة عشر عامًا على وفاة زوجته، إلا أنه ما زال محافظًا على عهدها، حتى خاتم زواجه لم يفكر ليوم واحد أن يخلعه من أُصبعه، حتى إن "حماته" عرضت عليه أن يتزوج من أخت وفاء الصغرى، إلا أنه رفض وشكرها قائلًا أنه عندما دخل بيتهم دخله طالبًا يد وفاء فقط، ولن يأخذ من هذا البيت أحدًا غيرها.

– ألم أقل لك وفاء نادر؟ لذلك أقسم أنني على الرغم من أنني تزوجت إلا أنني ما زلت أكن له كل احترام وتقدير.

– أعلم ذلك، وأعلم أنك تحزنين لطول صمته وسرحانه معظم الوقت.

– فعلًا. كان الله في عونه.

❋ ❋ ❋

عرض عليه القدر أن يأخذ هدنة من هذا الحزن المتواصل وهذه الآلام الطويلة، فدقت أبواب قلبه فرحة صغيرة جاءت بنجاح ابنته خاصة حصولها على المركز الثاني على مستوى المدرسة، الأمر الذي فرض على البيت أن يفتح أبوابه بعد سنوات طويلة لقبول التهنئة بالنجاح، وفي المساء وبعد انصراف المهنئين دخلت إلى غرفته وقفزت على السرير وجلست أمامه مداعبة ذقنه ببراءتها التي تشبه إلى حد كبير براءة أمها، وهو ينظر إليها وينظر إلى الصورة خلفها كأنها تشاركهما فرحتهما...

- تمني عليَّ، ماذا تريدين كهدية؟

- في الحقيقة أنا أفكر منذ فترة في هدية جميلة.

- مريني، ما هي وأنا أحضرها لك.

ألقت نفسها في حضنه وقالت: أريد أن أرى أول قصيدة كتبتها لأمي...

طرقت أبواب الماضي بشدة، خلعت قلبه من مكانه وأعادته من سماء فرحته المؤقتة إلى أرض الواقع بقسوة.

احتضنها بشدة وقال:

- من أخبرك بها؟

- خالتي يارا، قالت لي إن أمي خبأتها في صندوقها بداخل الدولاب، أرجوك يا أبي أريد أن أراها، هذه هي هديتي الوحيدة التي أريدها منك، أرجوك، أرجوك.

- حاضر سأحضرها.

نزل من السرير ببطء وضربات قلبه تزداد بخليط من الحنين والشجن المرتبط بفرحة أتت من الماضي ولكنها كانت ضعيفة، وضع الصندوق بينهما على السرير وفتحه وأخذ ينظر بتماسك مانعًا دموعه من أن تنهمر، أول رسالة، وردة عيد الحب بعد الخطبة، سلسلة عيد ميلادها الأول بعد الزفاف، كل هذه الأشياء أخذت تسأله عنها، أين هي؟ أين ذهبت؟ متى ستعود؟ للحظة هان عليه أن يغلق الصندوق مرة أخرى ليهرب من كل هذه الأسئلة التي لا يستطيع الإجابة عليها، لكنه تماسك حتى يحقق لابنته ما تريد.

لاحظت فرحة حالة والدها فحاولت إخراجه منها بسرعة فلعبت مرة ثانية بذقنه جعلته ينتفض ليعود بالزمن للوقت الحاضر.

- نعم.

- هيا اقرأها، أنا أنتظر، هيا.

ثم سحبت الوسادة ووضعتها في حضنها واتكأت بذراعيها عليها ووضعت يدها تحت ذقنها.

- هيا، أنا أنتظر.

أخذ يبتلع ريقه الذي لم يجده حيث شعر أن حلقه أصبح جافًّا بشدة.

- هيا أبي، ابدأ.

نظر إلى الصورة ليستجمع منها بعض القوة ثم بدأ.

مولاتي...

أعشقك عشقًا...

ليس منه فرار.

أعشقك عشقًا...

يملأ تسع بحار.

أعشقك عشقًا...

كعشق الليل لشمس النهار.

فأنت شمسي، وأنت نوري..

وأنا بدونك.

ليل لم يبد فيه نهار.

أعشقك عشقًا...

كعشق وثني يعبد شمس النهار.

أعشقك، أعشقك، أعشقك

عشقًا أبديًّا حتى أترك الديار.

- الله! جميلة حقًّا.

- حقًّا؟

- بالفعل جميلة جدًّا، لكن أخبرني ماذا فعلت أمي بعد أن قرأتها؟

- ههه... أمك لم تقرأها.

- ماذا؟ كيف؟

- أمك رفضت أن تأخذها حتى تمت خطبتنا.

- يااااه! معقول؟!

- أقسم لك، فأمك كانت تمتاز بخجل لم يعد موجدًا في الكثير من الفتيات ممن هم في مثل سنها الآن.

- صدقت، لكني مثل أمي ملتزمة ومحترمة.

- ههه طبعًا، ولما كنتِ مثل أمك هيا بنا نذهب لزيارتها غدًا.

- وهو كذلك، لكن أولًا أريد منك أن تقرأ لي آخر قصيدة كتبتها لها.

- أنا أكتب لها دومًا، فليس هناك قصيدة أخيرة.

- وهل تقرأها لأمي بعد كتابتها؟

- طبعًا كل مرة.

- أكيد، فقد سمعت أكثر من مرة حواراتك مع صورتها وغرامياتك لها.

- هههههه.

❋ ❋ ❋

ذهبا سويا لقبر وفاء، وحدثاها سويًّا عن حياتهما ونجاحاتهما وافتقادهما لها، وللحقيقة لم يكن أكثر المحيطين به تفاؤلًا يتوقع له أن يصمد طوال هذه الفترة بدون زواج، فأكثرهم تفاؤلًا كان يتوقع له أن يصمد لعام، عامين، أما كل هذه المدة! لم يكن أحد يتوقع ذلك.

لكنه ما زال صامدًا رغم الحزن والصمت اللذين لم يفارقانه، محافظًا على حبه، باقيًا على عهده، وها هي ابنته قد انتهت من المرحلة الثانوية والتحقت بكلية الصيدلة، ليبدأ فصلًا جديدًا مع زهرته، مجتازًا بها بحر السنوات بكل هدوء، محاولًا تفادي كل العواصف بحمكة، مارًّا بوفاة والديه حتى بعض الرياح العاطفية التي مرت بوردته.

صارحته في إحدى الليالي الشتوية الهادئة أن أحد زملائها يحاول التودد إليها بشتى الطرق، وأنها تجد بعض الانجذاب تجاهه...

- حبيبتي، ليست هكذا تقاس الأمور، أنت في السنة الأولى وهو كذلك، عندما كنت في مثل سنكم ذهبت إلى جدك رحمه الله وطلبت

يد أمك، فلذلك إن كان جادًّا في حبه فسيطلب منك أن يأتي إليَّ يطلبك مني.

- وإن لم يطلب؟

- عندها أنت أدرى بما يجب أن تفعليه، أليس كذلك حبيبتي؟

ابتسمت متفهمة نصيحة والدها، وبالفعل فقد كان يريد مجرد اللهو كأي شاب تافه في هذه المرحلة العمرية.

❋ ❋ ❋

- أشكرك لتفاهمك مع فرحة في موضوع الفتى هذا.

- لا تشكريني حبيبتي؛ فهذا واجبي تجاهها.

- لقد فعلت معها ما فعله أبي معي تمامًا عندما حدثته عنك.

- هههه... لأن هذا هو الصواب؛ فالحب ليس لقاءات وحوارات فقط، فالحب احترام والتزام وتفاهم.

- صدقت حبيبي، ها أين؟

سألته بابتسامة خجولة.

- أين هي؟

- أين ماذا؟

- ألم تكتب لي شيئًا جديدًا؟

- آآآه، كتبتُ، اسمعي مولاتي.

- مولاتك؟ (وتعيد الابتسامة).

أعلنت حبي دونما قيود

أعلنت حبي...

والنجوم عليَّ شهود

أعلنت عشقي ولم أنتظر

ولن أنتظر منك أي وعود

يكفيني منك بسمة...

إذا مت من التنائي.

تدعمني حتى أعود.

أعلنت حبي وبي فقر

ولا أدري عليك كيف أجود

أعلنت حبي، وأنت هل؟

لا، لا تعلني، لا أنتظر...

منك أي ردود.

يكفيني منك سؤالي...

حين الذهاب...

أخبرني، هل ستعود؟

* * *

- أرى أنه قد حان الأوان لتحدثها.

- لا، ليس الآن، ما زال الوقت باكرًا.

- باكرًا؟ تقصد أنك ما زلت خائفًا؟

- لا، لست خائفًا؛ بل أحب أن أتأكد.

- مم تتأكد؟ نحن في السنة الأخيرة وأنت تراقبها منذ العام الأول. ماذا تنتظر؟

ألم تتأكد حتى الآن من سلوكها؟ إنها أكثر فتيات الكلية احترامًا.

- أقول لك شيئًا، إذا لم تحدثها سأحدثها أنا.

- لا لا، سأذهب.

يذهب إليها في خجل شديد فهذه أول مرة يتحدث فيها إلى فتاة لا يعرفها.

فقد أمضى أحمد حياته كلها لا يهتم سوى بمذاكرته وتعليمه، لم يشغله عنهما شيء، وهذه هي المرة الأولى التي يشعره فيها قلبه أنه يدق.

- إذا سمحتِ يا آنسة.

(أدارت له وجهها ولسان حالها يقول أخيرًا تحرك الصخر، لكن تمخض الجبل فولد فأرًا، حيث لم يتمكن بسذاجته أن يختلق الموضوع المناسب).

- نعم!

- ما هو المدرج الذي سنأخذ فيه المحاضرة التالية؟

- سلامة عقلك، هذا هو المدرج الذي نحن فيه الآن!

بمجرد أن نطقتها وانفجرت بالضحك هي وزميلتها حتى شعر كأن دلو ماء بارد قد انسكب على رأسه فانسحب منهزمًا.

- لن أحدثها، لا أحبها، لن أذهب إليها مرة أخرى، فلتذهب إلى...

ظل يتمتم في غيظ حتى عاد إلى منزله، بل ظل حتى ذهب إلى فراشه... ونام.

* * *

- ههه... جميل ما قلته.

- لكني حزينة لأني أنتظره منذ مدة ليأخذ هذه الخطوة يا أبي.

- سيعود، أقسم لك، سيعود.

- لا أظن، وأمالت رأسها في حزن.

ذهبت إلى الكلية، ظلت تلتمسه بين الطلبة لكنه لم يأت، أصابها اليأس والحزن.

لم تنتبه لأي محاضرة في هذا اليوم؛ فقد كانت عيناها تبحثان عنه بين الحضور في كل محاضرة ولكن...!

استسلمت في نهاية اليوم وخرجت من قاعة المحاضرات لتعود لمنزلها خاسرة وكئيبة.

- فرحة. (أخذت دقات قلبها ترقص وتهتز، لكنها لم تلتفت مع أن قدميها قد التصقتا بالأرض).

- فرحة... أتقبلين الارتباط بي؟

* * *

جلس مع الأستاذ طارق يتحدث عن فرحة ودراستها، ويحدثه عن خطوتها التالية وتفكيره في أنها سترتبط في يوم من الأيام وتتركه وحيدًا، لكنه عاد ليحدث نفسه أن هذه هي سنة الحياة، وأنها لا بد أن تلعب دورها في الحياة لتكون لنفسها أسرة وبيتًا، مقنعًا نفسه أنه لا يملك سوى الدعاء لها أن يوفقها الله في حياتها وفي اختياراتها.

* * *

بدأ الفصل الثاني من رحلته مع فرحة بعد انتهاء فصل تعليمها الأول، وبدأت الإعدادات والتجهيزات للعرس السعيد، وبعد تسعة أشهر اكتملت فرحتها بالزفاف، وفي صباح ليلة العرس جلس مع ابنته في غرفة نومه وقال لها بعد أن قبل جبينها:

- سأقول لك ما قالته جدتك لأمك ليلة زفافنا.

- على أساس أنك أبي وأمي؟

وابتسمت في محاولة لإضفاء بعض المرح على الحديث.

- نعم أنا أمك وأبوك وأخوك وأختك، وكل شيء لك في هذه الدنيا، ولو أن جدتك كانت على قيد الحياة الآن لكنت طلبت منها أن تنصحك كما نصحت أمك.

- رحمهم الله جميعًا، قل لي إذن بماذا تنصحني؟

- حبيبتي، أنت اليوم ستخرجين من بيت كنت فيه ابنة مدللة لبيت تكونين أنت عماده وكل شيء فيه، ستكونين في هذا البيت أمًّا وأبًا و...

وعدد لها النصائح اللازمة والهامة لتحيا حياة مستقرة وهادئة وسعيدة.

أنهى حواره معها ثم نظر إلى صورة وفاء قبل أن يخرج من الغرفة محاولًا معرفة هل أدى النصائح على ما يرام، أم إن هناك ما يجب عليه أن يقوله بالإضافة إلى ما قاله. لكن تلقى الرد بالرضى التام والسعادة المتناهية.

أمضى ليلة عرس ابنته بين الأهل والأصدقاء وأسرة العريس كلها غارقة في فرحها، حتى العروس كانت غارقة في فرحها، وكأنها لا ينقصها حضور شخص مهم جدًّا لهذه الليلة، كل الحضور منشغل ببعضه في حضور مادي جسدي، أما هو فكان الوحيد السعيد بهذا الحضور الروحي الجميل، حضرت الروح بأجمل ما تكون المرأة في زينتها، وأخذ ينظر لها ويبتسم، ما أجملك من عروس، أقسم لك أنك أجمل من ابنتك وأجمل من أجمل امرأة في هذه القاعة الحمقاء.

شعور غريب لا يستطيع المرء وصفه عند ما تجد شيئًا جميلًا أمامك، وكان هذا الجميل ملكًا لك في أحد الأيام، ولكنك الآن لم يعد لك سيطرة عليه ولا تحكم، آآآآآه ما أصعب البعد وما أقسى الحرمان! والله لو كان الحرمان رجلًا لقتلته.

انتهت ليلة العرس في سلام، ومر الشهر الأول في سعادة، وأخذت فرحة بعد ذلك في زيارة أبيها كل أسبوع للاطمئنان عليه

وقضاء حوائجه، فعلت ذلك بانتظام لعدة أشهر لكن تأتي رياح الأيام بما لا تشتهي سفن العمر، وما كان واجبًا على الآباء فعله وكانوا يفعلونه بكل سعادة، عندما يأتي الدور على الأبناء لكي يردوا بعض هذا الجميل لأهلهم يبدأ التعلل بزخم الحياة وكثرة المسؤوليات، مع أن هذه المسؤوليات هي نفسها التي لم تمنع الآباء من قضاء واجباتهم نحو أبنائهم على أكمل وجه.

أخذ زخم الحياة المصطنع وكثرة مسؤولياتها الأسرية تظهر على السطح، وبدأت الزيارات الأسبوعية تتحول إلى زيارات كل أسبوعين ثم مرة كل شهر ثم...

❋ ❋ ❋

- لماذا تغيرت؟ لماذا تتأخر في العودة إلى البيت؟

- ولماذا أعود مبكرًا؟! من كنت أعود مبكرًا لأجلها مشغولة الآن بحياتها، فلم تعد تجد الوقت الكافي لزيارتي، إننا نحن الآباء مثل الماء لأبنائنا نربي ونكبر ونعلم، ثم بعد ذلك لا يوجد لنا أثر، يتم نسياننا بكل سهولة كأننا لم نكن.

- لا تحزن، هذه هي سنة الحياة.

- ولم لم تنسي أنت أباك؟ هل أنت حالة نادرة؟ أم كنت حالة شاذة؟

(لم تجد ما تجيب عليه به ففضلت الصمت).

- لمَ لا تأخذيني معك؟ حقيقة لقد سئمت هذه الحياة، سئمت كل شيء، أرجوك خذيني معك...

ظل طوال الفترة التالية يضيع وقته ويشغل ذاته، فكان يذهب للعمل قبل كل الموظفين ويخرج منه آخرهم، ثم يأخذ في السير في

الشوارع لمدة لا يعلمها إلا الله، يمشي سارحًا حتى يعود إلى نفسه، ويجد أنه لم يعد يقو على المسير، فيأخذ إحدى وسائل المواصلات ويعود إلى المنزل.

وهكذا لم يجد في أي من ملهيات الحياة ما قد يلهيه عن حاله، فلا رياضة ولا سياسة ولا حتى الجلوس على المقهى مع الأستاذ طارق أجدى نفعًا، ذهب معه بعد إلحاح عله يروح عن نفسه قليلًا من هذه الهموم التي أثقلت كاهله وزادته عمرًا فوق عمره، لكن هذه المحاولة أيضًا لم تنجح، فأذنه لم تعود تتحمل صخب المقاهي المزعج، فاضطر للانسحاب من هذه المحاولة والعودة إلى ضياعه وشروده حتى الطعام أهمله حتى ظهر على جسده النحول الشديد، الأمر الذي جعل ابنته تلح عليه في إحدى زياراتها القليلة أن يأتي ليعيش معها ولكنه يعيش مع من؟ ابنته التي لم تعد تزوره؟ أم زوج ابنته الذي لا يكلف نفسه عناء القدوم معها أو حتى الاتصال به معللًا ذلك بالعمل، نعم العمل، فاللعنة على العمل.

كانت تصر وهو أيضًا يصر على الرفض ثم الرفض ثم الرفض.

ووسط كل هذا الألم لم يكن يجد النشاط والسعادة إلا في مواعيد زيارة حبيبته.

- حبيبي، لمَ أهملت نفسك لهذه الدرجة؟

فلو لم تكن المستشفى قريبة من البنك لما استطاعوا إنقاذك، لم تفعل بنفسك ذلك؟

- ليتهم لم ينقذوني، ليتني مت لأرتاح.

تسبب عدم اهتمامه بطعامه بسقوطه في البنك نتيجة هبوط شديد في ضغط الدم.

وحذره الأطباء بضرورة الاعتناء بصحته وتناول الطعام بشكل كاف حتى لا يعرض نفسه لمضاعفات هو في غنى عنها.

- أقسمت عليك إلا أتيت معي إلى منزلي.

- لا أستطيع صدقيني.

- بلى تستطيع وستأتي.

تحت إصرارها الشديد على الذهاب معه إلى بيتها اضطر إلى الذهاب معها على مضض.

فقد كان يحذر من أن زوج ابنته الذي لا يكلف نفسه عناء السؤال عنه قد يشعر بالضيق من وجوده معهم.

لكنه حاول أن يكذب نفسه ويذهب معها، إلا أن حدسه لم يكذبه، فمر يوم ويومان وثلاثة وأسبوع.

فقط أسبوع شعر بعده كم أنه ثقيل، ثقيل لدرجة أن الشقة لم تعد تحتمله، ثقيل لدرجة أن الجدران تكاد تنطق وتقول له... ارحل، ارحل فقد سئمنا نظرات الضيق على وجه من هو في منزلة ابنك. ارحل واحفظ لنفسك بعض ماء الوجه.

بالفعل لم يكذبها ورحل، دخل منزله ووجد الفرق، سفرة ترحب وحوائط تقابله بالأحضان.

وصورة، أجل صورة لم تجف دموعها طوال الأسبوع الطويل، فهذه أول مرة يتركها فيها منذ سنوات طويلة وعريضة.

- أقسم لك لن أتركك مرة ثانية طوال ما تبقى في حياتي...

* * *

لم يتغير ديكور الغرفة عن المرة السابقة، لكن يد السنين تركت بصمتها في شعر رأسه الذي تحول معظمه إلى اللون الأبيض.

- بالفعل أستاذ خالد إن كل ما تعاني الآن منه هو نفسه ما كانت تعاني منه زوجتك في الماضي.

- الفصام؟

- أجل الفصام، ولا أجد ما يمكنني وصفه لك من علاج، فبالتأكيد أنت تتذكر ما قلته لك يومها.

- أجل أتذكره، لكني لم آت لحضرتك اليوم لتصف لي علاجًا.

- فلم أتيت إذن؟

- لا أدري...

- ما رأيك أستاذ خالد لو تذهب إلى إحدى دور المسنين، علك تجد من يسليك ويذهب عنك همك.

وكأنه كان يبحث عن هذه الفكرة، فلم يكذب خبرًا، وذهب بعد بحث عدة أيام إلى إحدى الدور القريبة من عمله، حيث كان يقضي فيها بقية النهار حتى أصبحت تلك عادته وروتينه، يذهب إلى هناك ويتحدث النزلاء هناك عن حياتهم وكفاحهم وبطولات أبنائهم بعد تربيتهم في التخلص منهم وإلقائهم في هذه الدور كنوع من رد الجميل على كفاحهم وتربيتهم لهم.

أبناء منشغلون بالعمل عن آباء لم يشغلهم عنهم نفس العمل، الحزن والقهر يعصرهم، هل هكذا يكون رد الجميل من أبنائنا؟

كل هذا لم يدهشه؛ لأن هذا نفسه هو ما حدث معه مع تغيير بسيط، إن ابنته لم تضعه في إحدى دور المسنين، لكن الأمر الذي أدهشه حقًّا هو أن أحد النزلاء أشار إلى رجل يجلس في آخر الحديقة

ومعه كلب، قال له الرجل إن هذا النزيل قد ربى هذا الكلب منذ صغره، لذلك رفض أن يتركه وحده في الدار، وفشلت كل محاولات إخراجه من هنا، لدرجة أن هذا النزيل بكى للمسؤولين عن الدار ليتركوه قائلًا: دعوه، فيا ليتني أنجبته.

- فعلًا يا ليتنا أنجبنا كلابًا؛ لأنها كانت ستظل وفية لنا ولن تلقينا هنا بعد أن يأكلنا الدهر.

نظر إلى النزيل في شفقة وقال: فعلًا هذه الحياة لا تستحق الحياة، ثم نظر عن يمينه إلى الشجرة القريبة منه ليجدها تومئ له بالموافقة.

❋ ❋ ❋

- مرحبًا ابنتي، كيف حالك؟

- مرحبًا أبي، بخير، وأنت؟

- ألا تريدين أن تسمعي آخر قصيدة كتبتها لأمك؟

- أكتبت شيئًا جديدًا؟

- نعم، إنها الأخيرة، سأنتظرك غدًا.

لم تفهم قصده من كلمة الأخيرة، وأجابته بالتأكيد أنها ستأتي لزيارته في نهاية الأسبوع، طوال هذا الأسبوع لم ينقطع عن زيارة الدار ولا عن مشاهدة هذا النزيل، كأنه يغذي في نفسه هذا الشعور فعلًا بأن هذه الحياة لا تستحق الحياة...

- قل لي يا أبي متى كتبتها؟

- كتبتها في بداية الأسبوع.

- حسنا أنا أستمع.

وجلست نفس جلستها المعتادة مع وسادتها وعلقت نظرها نحو أبيها.

نسيت هواك، وما نسيت.

نسيت هواك؟ لا أتذكر.

تمر ليالي، تمر سنين.

يقولون سلاها، وحبك يكبر.

كأن هواك. كأنه ورد...

يقولون مات، ولونه أصفر.

ماذا أقول لريح هواك؟

أقول نسيت طعم السكر؟

حرمت هواك وليس قراري

حرمت هواك ولم أتذمر.

وبكيت عليك بكيت بدمعي...

وحتى دمائي نزفت أكثر.

ورغم مروري ليس بعام.

بل يا حياتي مررت بأكثر

ما زالت حياتي عند هواك...

ما زال فؤادي لم يتقهقر

فليس اليوم يحبك قلبي.

بل يا حياتي يحبك أكثر.

- الله! ما هذا الجمال؟! إنني أحسد أمي عليك يا أبي، يا ليت زوجي يستطيع أن يقول لي مثلما تقول.

- لو نبض قلبه بحق لأخرج لسانه أجمل شعر.

مرت الليلة في هدوء، وبعد أن ودع ابنته عند الباب وأخذها بين ذراعيه أوصاها أن تعتني بنفسها وزوجها، وأكد عليها ألا تنسى وصيته التي طالما أوصاها بها.

- نعم يا أبي أتذكر، لا تخف، لن أنسى هذه، هذه المرة المائة التي تذكرني فيها بوصيتك ولم يحدث شيء.

ثم ضحكت كأنها تداعبه.

- أحببت أن أذكرك فقط.

- لا تخف، لن أنسى، إلى اللقاء.

لم تأخذ كلامه على محمل الجد هذه المرة؛ لأنها تعتقد أنه يتحدث هكذا كما يتحدث كل مرة، لأنها لم تكن تعلم أن الميت يشعر بدنو أجله عند اقتراب رحيله عن الدنيا، لذلك ذهب إلى المقابر في الصباح وطلب من حارس المقبرة أن يجهز له مكانه الذي أعده طوال سنوات بجوار حب عمره.

❋ ❋ ❋

أغلق باب الشقة ودخل إلى غرفة نومه وجلس فوق السرير ينظر إلى الصورة، وأخذت تنهمر من عينيه دموع الاشتياق، ثم وضع ورقة في جيبه بعد أن نظر إليها وقرأها في صمت.

وماهي إلا لحظات حتى تبدلت دموع الاشتياق إلى دموع فرحة. نفس الفرحة التي شعر بها في سيارة الزفاف، ونفس الوجه الطفولي البريء الذي ابتسم له في خجل تلك الليلة قبل ستة وعشرين عامًا، ينظر إليها كأنها ما زالت تلك العروس التي لم تخلع فستانها الأبيض بعد، تمد له نفس اليد التي امتدت له في السيارة لتمسك به وتأخذه إلى عالم السعادة، ليمد يده ويقول: أجل، سعادة إلى الأبد...

(تمت بحمد الله تعالى).